

المجتمع المصري من خلال «قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية» لأحمد أمين

- دراسة حضارية -

الدكتور يوسف أبو نجم^٥

مقدمة

وُلد أحمد أمين في الأول من تشرين الأول سنة ١٨٨٦، أي بعد نحو أربع سنوات على الاحتلال الإنكليزي لمصر. وقد نشأ في بيئة يسودها جو من الكبت والاستغلال بفعل هذا الاحتلال. إلا أن ذلك لم يمنعه من ملاحظة بعض حسنات الوجود الإنكليزي في بلاده على الرغم من السيئات الكثيرة: فقد سمح هذا الوجود بأنصال المصريين «بالإفرنج» مما أدى إلى تسلل «النمط» الأوروبي إلى البلاد. لكن كان لهذا الاتصال سيئاته كذلك إذ إن النمط الأوروبي راح يتغلغل في المجتمع على حساب العادات والتقاليد المصرية المحلية التي بدأت تضمحل لتُنتسح نه في المجال. وقد برزت على الأثر ردات فعل كثيرة ومتنوعة، كان أبرزها حركة الإصلاح.

ولما كان أحمد أمين مُتعلماً ومُفتحاً على الفكر الأوروبي، لم يستطع التزام موقف الجهاد أو اللامبالاة تجاه ما يجري في المجتمع المصري. ونظراً إلى كونه مُتعلماً، لم يسهه إلا المشاركة في إصلاح المجتمع. لكن

(٥) أستاذ في كلية الآداب والمعلوم الإنسانية - الفرع الثاني، الجامعة اللبنانية.

هذا لم يمنعه من البقاء واضح الرؤيا ليلاحظ تراجع سطوة العادات المصرية أمام نمط الحياة الإفرنجي الذي راح يحل محلها تدريجاً.

من هنا استرحى أحمد أمين كتابه^(١) - موضوع دراستنا: فقد خشي على أسس المجتمع أن تضع وتزول بفعل العادات الأوروبية التي غزت المجتمع المصري. فحاول، في كتابه، جمع ما علق بذاكرته من للمعات والتقاليد المصرية علّة بذلك يحفظ - ولو ذكرى - نمط حياة المجتمع المصري القح.

كذلك، أراد المؤلف أن يكون كتابه نداءً إلى المؤرخين الذين تركوا «أهملوا»^(٢) تاريخ الطبقات الشعبية ولم يلتفتوا إلا إلى تاريخ الأرستقراطيين وتقاليدهم.

أما بالنسبة إليه، فإن العادات والتقاليد الشعبية قيمة وغنية بالمصطلحات: لا بل إنها وجه الأمة الحقيقي.

هكذا، ومن خلال عناوين محدّدة متنوّعة المواضيع، يحاول أحمد أمين أن يُبين للقارئ التغيّرات التي طرأت على العادات والتقاليد المحليّة بفعل تلامّحها مع نمط جديد هو النمط «الإفرنجي» أو الأوروبي. ويدر المؤلف راضياً عن دخول هذا النمط الجديد مجتمعه لا بل يرك مفيداً، ما دام لم يمسّ الركائز الأساسية للمجتمع. إلا أنه يلاحظ أنّ المصريين غالباً ما يقصرون عن فهم واستيعاب هذا النمط.

أما بحثنا، فإنه يتناول العادات والتقاليد المصرية كما يقدّمها لنا أحمد أمين في قاموس العادات والتقاليد والتمايير المصرية، وستخلصها بغية استخراج خصائص الحياة المصرية.

لذلك، وانطلاقاً من العناوين المتنوّعة، يبرز لنا توزيع للمواضيع

(١) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد والتمايير المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة،

١٩٥٣.

(٢) قاموس: للمقلّمة.

المُعالِجة يُوَدِّي بنا إلى نقاط عديدة أساسية تتداخل في المجتمع للمصري .
وقد اخترنا من هذه النقاط ناحيتي الدين والحياة الاجتماعية لأنهما
المجالان الأساسيان اللذان عني بهما صاحب الكتاب، لا بل ليهما سبب
وضعه .

أولاً: الدين

يوضح المؤلف في مقدمته أنّ مواد قاموسه، الميراثية مقالات، شكّلت
مادة لبرنامج إذاعي تقدّمه الإذاعة المصرية . وليس من قبيل المصطلحة أن يبدأ
المؤلف قاموسه بمادة «الإبرة»، إذ إنّها عنصر شديد الأهمية في للمعتقدات
والخرافات المترسخة في الفكر الجماعي لدى المصريين . وحكنا، كان
المصريون يمتنعون عن بيع وشراء الإبر بعد العصر، يقول أحمد أمين :

«وأساس ذلك عندهم خرافة شائعة، وهي أنّ الملائكة للموكلة بقسمة
الأرزاق تنزل بعد العصر، فتقسم الأرزاق بحسب الحالة التي يرون عليها
الإنسان، فإذا كان في سعة من العيش زادته سعة، وإن كان في ضيق أعطته
على قدره، وهم يعتقدون أنّ حرقة الخياطة من أبأس الحرف وأتشرها، فهم
يكرهون أن تراهم الملائكة على هذا البؤس فترزقهم على قتلو بؤسهم،
فحرّموا من أجل ذلك الخياطة وبيع الإبر بعد العصر^(٣) .»

كما كان بعض المصريين يعتقدون أنّ الخياطة في الليل تضرّ بالموتى
وتسيء إليهم، فيمتنعون عنها بعد غياب الشمس .

فاختيار مادة «الإبرة» لبده القاموس يدلنا على عمق تأمير للمعتقدات
الخرافية في المجتمع المصري الذي طبع عميقاً بها . وهو أيضاً دليل على
الهاجس الأساسي الذي يشغل بال المؤلف عندما يفكر في المعتقدات المصرية
البعثة: إذ ما من شيء لافيت مثل تعلّتهم بخرافاتهم، ممّا يثير خوف
المؤلف منها على حياة المصريين الدينية .

(٣) قاموس: الإبرة .

سنحاول هنا أن نعرض كيفية تعاطي المصريين مع دينهم، ثم ندرس تأثير المعتقدات الخرافية على حياة المصريين الدينية.

أ - الدين في حياة المصريين اليومية

لسنا بحاجة إلى التعمق في البحث عن المظاهر الدينية في حياة المصريين لأن كل ما في المجتمع يُظهر جواً دينياً طاعياً. فالجوامع شامخة في كل الشوارع، والناس يقرأون القرآن في منازلهم ودكاكينهم لينالوا بركة الله. كما أنّ حياتهم تزخر بأعمال البر والإحسان والمظاهر الدينية، وبخاصة خلال شهر رمضان: الإحسان، الزكاة، الإمساك، زيارة الأضرحة وكثير غيرها... فضلاً عن أهمية الحج كركن أساسي من أركان الدين. فكان المرء، عند عودته من الحج، يُحتفى به ويُطلَق عليه اسم «حاج» تكريماً له. وكان هذا اللقب يلازمه كل حياته ليذكره بحجّه. ومن معتقدات المصريين الدينية الأساسية، كالمسلمين، «بعث» الأموات والدينونة.

من ناحية أخرى، تقوم المرحلة الأولى من التعليم الديني، في حدّها الأدنى، على حفظ القرآن في «الكتاب». لكنّ التلاميذ لم يكونوا مندفعين ولا متحمسين إجمالاً، وبخاصة بسبب «الفُلقة» التي كانت تقتل كل رغبة لديهم في الحفاظ. حتّى إن أحمد أمين نفسه يحفظ في رِجله أثراً «طويلاً» لها، كما أنّ فكرة الهروب من الكتاب قد راودته غير مرّة^(٤): أمّا المدرّس «الفقيه» فكان يجهل الكتابة - أو لا يحسنها - ممّا يُحيل درسه مُجرّد تلقين صوتي. وهكذا بقيت الثقافة الدينية للكثيرين من المصريين مقتصرة على حفظ القرآن إضافة إلى شعائر الصلاة.

قليلون هم التلاميذ الذين كان لديهم القدرة والصبر الضروريّان لإكمال دراستهم طوال عشرين سنة في الأزهر، مركز الحياة الدينية والثقافية. لكنّ «العلماء» فيه لم يكونوا دوماً على المستوى المطلوب:

«وكان العلماء ينصبون أنفسهم مدرّسين فإذا سمعهم الطلبة فيما أن

(٤) أحمد أمين: حياتي، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص ٤٥.

يقرؤهم على تدرستهم أو يقيمهم من أمكثهم^(٥) .

أو كانت شروحاتهم منقّلة صعبة، فلا يستفيد الطلبة في كلا الحالتين. وهكذا كانت أنياليب التعليم ونشر الثقافة عقيمة لا يمل تشكّل عقبة في وجه التعليم بدلاً من أن تسهم في تسهيل المهمة؛ فقرأ ما يلي:

«ويجلس الشيخ... ويقرأ درسه في كتاب، ويظيل ويعد في كل جملة ويفتها تفتيًا. والكتاب عادة عبارة عن متن وشرح وحاشية وقد يزداد على هذا كله تقارير. وفي كل كلمة تتوالى على الشيخ الأسئلة، فلما كان حصيماً استطاع أن يجيب عليها^(٦) .»

إنما رغم الانطباع الذي يثيره قينا أحمد أمين عن الأزهر في أيامه، فهو لا يتوانى عن مدحه مُعدداً حسنة:

«... رفع راية الثقافة يوم حوريت الثقافات حتى انكسرت، ... وأن منهجه في التدريس يعلم طلبه الصبر والدقة. فلا يقبلون من العبارات إلا ما كان دقيقاً منطقيًا، مركزاً^(٧) .»

إلا أننا نلاحظ تافضاً هنا بين موقف أحمد أمين وموقف بعض الأدباء المعاصرين له (مثل نجيب محفوظ وغيره) الذين يدينون انغلاق وحتم النظام التربوي في الأزهر^(٨) .

لكن هذا لم يمنع تدفق الطلاب بأعداد كبيرة نحو الأزهر: يأتونه من كل أنحاء مصر. لم يكن الشعور اللدني منذ بداية القرن التاسع عشر هو السبب الأساسي الذي جذبهم نحوه، بل الهرب من السخرة وللجندية؛ فالمجاورون كانوا معفيين منها^(٩) .

(٥) قاموس: الأزهر.

(٦) قاموس: الأزهر.

(٧) قاموس: الأزهر.

(٨) نجيب محفوظ، فضيحة في القاهرة، للكتاب الذهبي، نادي النعمة، المجلد الثامن عشر، نوفمبر سنة ١٩٥٣، ص ٣٨.

(٩) نجد الفكرة عنها في: 1805, *L'Égypte et ses provinces*, 1805.

1976, *Éditions du C.N.R.S., Paris*, 1976, ص ٣٥.

مهما يكن، فإن أحمد أمين يرى أن هناك قاسماً مشتركاً بين «الكتاب» والأزهر ألا وهو انعدام النظافة. فكان عدّة طلبة يأكلون في الصحن نفسه ويفتلون (يتوضأون) في بركة المسجد الكبيرة، ممّا يسهل انتقال عدوى الأمراض. وقد أدى ذلك إلى وفاة بعض الطلاب. من هنا شاع بين سكان القاهرة «أن من الأزهر يتشر الجرب»^(١٠).

لكن هذه الأمور وغيرها من المسائل الأساسية لتفتح الفكر ووعيه كانت تُخفق تحت شعار المحافظة على الدين. ويعطي أحمد أمين مثلاً على ذلك اعتقاد المصريين لمحمد عبده عندما أُبطل الميضة الكبرى ووضِع مكانها الحنفيات:

«فأذعوا أنه أذهب البركة من الأزهر، وقاموا عليه وانتقدوه»^(١١).

وهكذا، يلاحظ المؤلف تعلق المصريين بمظاهر الممارسة الدينية وتزكّهم جوهرها. إن حجاب الدين يخفي كل وضوح لديهم ويمنعهم من وضع كل أمر في نصابه: فيتعلقون بكل إرادتهم بتقاليدهم، مهما كانت نتائجها سيئة، ويرفضون كل جديد حتى ولو كان مفيداً. وعليه، يُدخلون في الدين ما ليس منه: فهم لم يستطيعوا تقبل فكرة إزالة الميضة، فأصبحت عندهم ضرورة للصلاة، وكل تعرّض لها هو بالنسبة إليهم تعرّض للدين. كذلك الأمر بالنسبة إلى أهمية الختان عندهم^(١٢). أما تلاوة القرآن فقد بعدت كثيراً عن فكرة الصلاة والتبرك، حين وجد فيها الكثيرون مهنة مربحة: فراحوا يتلون القرآن في البيوت والدكاكين وحتى في الطرقات إذا اشتدّت بهم الحاجة^(١٣). كما اعتقد الكثيرون أنهم بيناتهم جامعاً أو ميل ماء، فإن خطاياهم تُغفر لهم.

وأكثر ما ينجلى ابتعاد المصريين عن المفهوم الديني الصحيح في

(١٠) قلموس: الأزهر.

(١١) قلموس: الأزهر.

(١٢) قلموس: للختان.

(١٣) قلموس: تلاوة للقرآن.

«المولده» حيث يتحوّل العيد إلى مناسبة «للتجارة» و«الشموذة» و«السكرة»^(١٤) رنسى للناس المعنى الدينى الحقيقى ولا يهتمون إلا بمظاهر الفرح فيه .

في أثناء عرض مظاهر الحضور الدينى في حياة المصريين، تلاحظ الالتصاق الحميم بين تصرفات الأفراد والإسلام: فالدين هو المركز الذي يجذب تحوه كلّ الأفعال . إنه الدافع إلى القيام بعمل ما أو الابتعاد عن آخر: «لؤلؤنا نظرت إلى بيوت المصريين القدماء رأيت الحريم منفصلاً عن مواضع للرجال، لما يعتقدونه في الإسلام من الحجاب...»^(١٥) .

لا يبل وصل تأثير الإسلام إلى أبعد بكثير من هذه الأمور، إلى الأمور الثقافية في حياة الأفراد . فقرأ عند أحمد أمين في سيرته الذاتية^(١٦) أنّ والده لم يكن يشتري زهوراً غير النرجس لترمين المتزل، وذلك لا علاقة له لا بحبه لهفته الزهرة بخاصة ولا لذوقه؛ بل - على ما يعتقد المؤلف - لأنه قرأ «حليّة» يمدح النرجس كواقٍ من داء الجنب .

إذا كان صحيحاً أنّ المصريين مواظبون على شعائر دينهم الأساسية فإنهم يركّزون على الشكليات؛ إنهم أسرى عاداتهم المرتبطة بالدين . واذ يعرض أحمد أمين لهذه العادات فإنما يكشف السواحي غير الدينية في الدين، في محاولة لإفهام الناس أنّ حرارة الإيمان إنّما تكون في القلب وليس في شعائر يكرّرونها - أحياناً كثيرة - لاشعورياً . فهو يحاول الحدّ من اندفاعهم الدينى اللاشعورى الذي يجعل منهم مجرد آلات تنمّ شعائر من دون آتى تفكير ليوقظ فيهم المنطق: وتلك مهمة عسيرة . وعليه نلاحظ أنّ أحمد أمين يبدأ كلّ مقالة لها علاقة بالدين بعرض الفكرة الخاطئة التي كوّنوها المصريون حول هذا المظهر أو ذلك من ديانتهم . ففي مقالة «مولد السيد» يبدأ كما يلي:

«يقام في طنطا كلّ عام مولد كبير، تجتمع فيه حلقات الذكر، وأهل

(١٤) *L'Égypte d'aujourd'hui*، ص ٣٤ .

(١٥) طحوس: للدين .

(١٦) حليتي، ص ٥٠ .

الدعارة والخلاعة، والطبل والزمر، وتجار المأكولات، وعلى الأخص
الحمص والحلاوة وحبّ الميزز^(١٧) .»

كذلك نقرأ في مطلع مقالة «الضريح» :

«هو عبارة عن تركيبة مربعة أو مستطيلة من الخشب أو النحاس،
توضع على تبور الأولياء الصالحين. ومن الأسف أنّ ليس كلّ مَنْ وُضِعَ
عليه ضريحٌ يكون وليّاً صالحاً فقد يكون وليّاً صالحاً يقولون، وقد يكون غير
ذلك^(١٨) .»

ولا يفوتنا هنا استعمال المؤلف كلمة «يقولون» التي يتّقي بها انتقادات
المتعصّبين؛ فالذين يؤمنون بوليّ، صالحاً كان أم غير صالح، يؤمنون به
بكلّ قواهم ويدينون كلّ مَنْ يتجرّأ على الشكّ فيه.

على كلّ، كان المؤلف نفسه، في صباه، يمتنع عن إدخال المنطق في
الأمر الدينيّ^(١٩)؛ فقد كان الإسلام بنظره - آنذاك - من المُسلمات التي لا
مجال إطلاقاً للبحث فيها.

ب - الدين والخرافات

«الحقّ أنّ المصريّين يفوقون غيرهم في الخرافات والأوهام^(٢٠) .»
فهم يؤمنون بوجود الجنّ والشياطين القادرة على فعل أيّ شيء: إنّها
تتدخل في الحياة اليوميّة، تعشق أناساً من البشر، تسيطر عليهم، تبني المدن
- كتدمر^(٢١) مثلاً. . . ويرى أحمد أمين أنّ هذا الاعتقاد عند المصريّين مرّده
إلى طفولة كلّ منهم. إنّها نتيجة جهل تربيويّ عند الوالدين الذين يُخبرون
أولادهم - لجعلهم ينامون! - حكاياتٍ وأخباراً تدور حواذئها حول تدخل

(١٧) قاموس: مولد السيّد.

(١٨) قاموس: للضريح.

(١٩) حياتي، ص ١٢٨.

(٢٠) قاموس: للخرافات والأوهام.

(٢١) قاموس: للخرافات والأوهام.

الجانّ ولشياطين في الحياة^(٢٢). وأحمد أمين نفسه، في حديثه، عرف هذه الأخبار والحكايات على لسان جنته التي كانت تزوره من وقت إلى آخر وتروي حكايات فيها أخبار عن الشياطين وأعمالهم^(٢٣). أما القاموس، فلا يخلو من نماذج عن تلك الحكايات التي كان الأولاد يتلقفون لسماعها:

«... ويمدين قال: يا ملك الزمان وحيد العصر والأوان، دا مرضى الملكة مش من الأرض، دا مرضها من الجان، ... وقال: دواها مي جيش إلا على بلبل الصباح. فقال السلطان: وقين بلبل الصباح؟ فقال له: في البتان للمسحور، ورا السج بحور... بص على الجنية لقي غول داخل، فخاف وارتمش، قام جرى يدور على مطرح يستخي فيه، واحتار ورجع تاني داخل الأوده اللي كان فيها واستخى ورا الباب، فالغول ضرب الحيطه وخبط يايده عليها، فانفتح فيها باب مسحور...»^(٢٤).

كان المصريّ إذا، ومنذ نعومة أظفاره، يخزن في لاوعيه كلّ المعتقدات التي تعود فتظهر عندما يشبّ، وتُسيّر تصرفاته. لذلك، كان يخاف أن يمشي وحيداً في الليل، وهو الوقت المفضّل لدى الجانّ والشياطين للقيام بأعمالها. كما كان يهرب من أيّ هرّ أسود وبخاصة في الليل، ويحاول عدم إزعاجه وإن خطف له اللحم: فالهرّ الأسود ما هو إلا جنيّ مُجسّد!

إنّ درجة رسوخ هذه المعتقدات في العقلية المصرية كانت شديدة إلى حدّ أنّها سبّبت وفاة الكثيرين من الأشخاص؛ فإذا مرض أحدهم، كان أهله يظنون أنّ مرضه ما هو إلا إشارة من الجانّ تدلّ على عدم رضاها عنه. وبدلاً من أخذه إلى المستشفى - وكان الكثيرون يخشون المستشفيات - كان الأهل يقومون بشعائر يظنون أنّها فعّالة لشفاء مريضهم. وغالباً ما كان المرضى

(٢٢) تجد للفكرة نفسها عند نجيب محفوظ في السراب، لجنة للنشر للجامعتين، مطابع دار للكتاب العربي، د. ت. ١٠، ص ١٥. ونشير هنا إلى أنّ هذا الرضع ليس محصوراً بالمصريّين وحدهم، بل نجده لدى غالبية الشعوب.

(٢٣) حياقي، ص ٢٠.

(٢٤) قاموس: حلتوته.

يدفعون حياتهم ثمنًا لهذه الشعائر الباطلة. وقد كشف لنا أحمد أمين عن إحدى تلك البرصقات «الشفايئة»! يقول:

«... إعتاد بعضهم إذا توهم أنّ مرضه جاء من غضب الجنّ عليه، أن يذّيب في الماء نوعًا من السكر الأحمر، في إناء بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة، ويأخذ المريض ذلك الإناء أو يُنِيب عنه مَنْ يصعد به إلى سطح البيت وهو ساكت لا يتكلّم، ولا يلتفت وراءه وهو صاعد، ويقلب الإناء بما فيه على الأرض، ولا يذكر اسم الله وهو يُريقه، على الأقلّ، فقد يرضى عنه الجنّ فيشفى...» (٢٥).

غالبًا ما كان الناس يزورون الرجال أو النساء الذين لديهم سلطة تسخير الجنّ للقيام بما يطلبون منها. ولم يكن هؤلاء الأشخاص سوى دجّالين أو مجانين أو مجاذيب، وجدوا في ادّعائهم التعاطي مع الجنّ مهنة تدرّ عليهم أرباحًا طائلة. يقول عنهم المؤلّف:

«وقد يكون بعض هؤلاء مجانين أو مجاذيب. فهم يعملون جنونهم أو انجذابهم أو إتيانهم بالأعمال الشاذّة باتصالهم بالله وملائكته» (٢٦).

كانت الخدمات التي تُطلّب من الجنّ تصل إلى أتفه الأمور الحيّاتيّة اليوميّة (٢٧)، ممّا يؤكّد لنا بساطة عقول المصريّين وجهلهم وانعدام عمل الفكر لديهم وتعلّقهم الأعمى بهذه الشعائر. لا بل، كان هؤلاء الناس يقفون حائرين إذا ما قاموا بالشعائر المطلوبة منهم من دون أن تحقّق طلباتهم. أمّا إذا حدث، من قبيل الصدقة، أن «لبيّ» الجنّ طلب أحدهم، فإنّ الشخص الذي قام بالوساطة بين الطالب والجنّ يذّيع صيته ويُسَمّى «واليا». فتتصّ داره بالناس يجيئون بالهدايا والتقدّمات طالين نعمته ووساطته لدى «جنيّه» لكي يرضى هذا الأخير القيام بما يُطلب منه. فعلى سبيل المثال، يتقدّم لنا المؤلّف ما حدث مع أحدهم:

(٢٥) قاموس: جنّ.

(٢٦) قاموس: للخرفات والأوهام.

(٢٧) نجد مثالًا واضحًا عن هذه الفكرة عند نجيب محفوظ في السراب، ص ٦٨-٦٩.

«وحدث هذا للشيخ يوسف صاحب المقام المشهور، فقد تنبأ مرّات بأحد المفيات أمام الرالي وصدق في تنبؤه، فأدعيث له الولاية وئني له مسجد في شارع القصر العيني، ودُفن فيه، واعتُمد فيه» (٢٨).

تجدد الإشارة إلى أنّ كلّ «والٍ» - رجلاً كان أم امرأة - كان مختصاً بنوع مُعيّن من الجنّ:

«... هذه عليها أسياد سودانيّة، وهذه حجازيّة، وهذه مغربيّة. وهكذا» (٢٩).

كما تجدد الإشارة إلى أنّ كلّ شخص قادرٌ على تسخير الجنّ لخدمته، وذلك بعد إتمام ما يلي:

«ومن أراد أن تخدمه الجنّ فإنه يصوم أربعين يوماً في خلوة لا يأكل إلّا خبز الشعير والزبيب الأسود، ولا يأكل إلّا كلّ أربع وعشرين ساعة، ثمّ يتلو عزائم ويستحضر بها الخدام،...» (٣٠).

وهكذا، أدّى هذا الاعتقاد إلى نشوء طبقة في المجتمع المصريّ تضمّ أشخاصاً محترمين، لا بل مُقدّسين، يوجّهون بأرائهم أعمال الناس. وقد تكون هذه الخرافات شكّلت الملجأ الذي يأوي إليه المصريون إذ كانوا يوماً يحكمهم الغرباء: فللهرب من شعورهم بالدونيّة، ولتبرير عجزهم، نسبوا أمر كونهم يوماً محكومين إلى «القضاء والقدر». وعليه؛ إنّ المقالات التي تحدّثنا عن الخرافات تعجّ بالفاظ تدلّ على دور «القدر» في حياة المصريّين، مثل «القضاء والقدر»، «البخت»، «الكتاب المخطوط»، «النجوم»، «الطالع»، «يد الطبيعة»، وكثير غيرها.

لا شيء إذاً، في العالم، يمكن أن يقع أو يحدث «على طريق المصادقة»: إنّها «النجوم» و «السيارات» و «القدر» تجتمع كلّها ضدّ

(٢٨) قاموس: جنّ.

(٢٩) قاموس: الأسياد.

(٣٠) قاموس: جنّ.

المصريين. ولا فائدة إذا من البحث عن دواء إذا أصاب المرض المزروعات لأنها مشيئة «القدر» أن يصيبها المرض: إذا كانت الغلة وفيرة فهذه مشيئة الله؛ وإذا كانت شحيحة، فتلك مشيئة الله كذلك. من هذه الزاوية، شكّل هذا المفهوم الديني عقبةً في طريق التطور عند المصريين. لذلك، ولمواجهة القدر - القوة العظيمة التي تفوقهم - لجأ المصريون إلى قوى تفوق قدره البشر: الجن. فكانت الخرافات والشعائر المخيطة بها الملاذ الذي إليه يلجأون ليستمدوا القوة في مواجهة كل ما يتحكّم فيهم ويرجّه حياتهم. وكان كل نجاح - بفضل تدخل الجن! - بشكلٍ دليلاً على قوتهم في مواجهة القدر.

خلال عرض هذه الآراء، نرى المؤلف يتدخل مباشرة ليرفض وليهاجم هذه الشعائر السطحية التي تعلق بها الشعب ومارسها بإيمان عميق فيها.

وموقفه طيبني نظراً إلى تربيته الدينية المعتمدة والصارمة التي عرفها طويلاً في صباه. كما نجد تأثيراً لآراء محمد عبده الإصلاحية التي تهدف إلى العودة إلى أصول الإسلام، إلى القرآن، لتشذيب الدين من كل ما علق به من خرافات وتحويرات لا تمتُّ إليه بصلة. هكذا يرجع الدين إلى ما كان عليه عند انطلاقة، ديانة صحيحة بسيطة. وهنا يشدد أحمد أمين على بساطة الدين كأنه يعني إبعاد الثقارئ عن التعقيدات الكثيرة التي أدخلت فيه، فيقول: «... ومع ذلك يدخل فيه - [أي الإسلام] الوثنيون أفواجاً لبساطته...» (٣١).

يرى المؤلف أنّ الجن لا وجود لها إلا عند ضعيفي العقل. ويفعل قراءة الكثير من كتب الخرافات التي تعجّ بها رفوف المكتبات، وسماع حكايات الجن وأخبارها، يصبح الناس أكثر وأسهل تقبلاً للخرافات. ولكن «... كل ذلك، وهم في وهم» (٣٢).

(٣١) قاموس: للدين.

(٣٢) قاموس: للزور.

ويهدف المؤلف إلى التشديد على دور التعليم في مَحْوِ الخرافات وأثرها: إنَّ الجهل، جَهْل عامَّة الشعب وبخاصَّة النساء، سبب ذلك الاندفاع الأعمى نحو الخرافات. وهكذا يحاول أحمد أمين إبراز الدور التربوي الهام للمرأة في تطوُّر الأمة. وحده تعليم الشعب هو الحلُّ القادر على إزالة كلِّ هذه العادات السيئة:

«... وهذه كلها تزول تدريجياً مع العلم».

وبعبارة أخرى تزول مع زوال الجهل. ولذلك ترى أنه كلما أغرت قرية من القرى في الجهل كثرت فيها الخرافات^(٣٣).

ذلك أنَّ عقلية الجاهل تشكُّل المرتع الخصب لهذا النوع من الأفكار.

إلا أنَّ أحمد أمين يتخطى هذا الحدَّ ليرةً تعلّق الناس بالخرافات إلى اللاوعي عندهم. فالعقل المأخوذ بأخبار الجنِّ قبل النوم سيولّد حُكماً، في المنام، أحلاماً حول الجنِّ؛ ممَّا يشير إلى أنَّ اللاوعي يُضحي مخزناً لهذا النوع من الحكايات. وتأكيداً لهذا الرأي، يخبرنا المؤلف قصة رجلٍ لم يكن يؤمن بوجود الجنِّ، ولكنّه شارك، في إحدى السهرات، في مناقشة حول هذا الموضوع؛ فاستيقظ في الليل، فجأة، مرعوباً، يحسُّ بأنَّ حول سريره شياطين صغيرة تكلمه. أمَّا استنتاج أحمد أمين فكان:

«... وهذا من غير شك نتيجة لما كان من أحاديث قبل النوم، وهذا يدلُّ على أنَّ المبحَّ إذا شُغل بهذه الأشياء تراءت له وانعكست له صورة الأحاديث في نفسه^(٣٤)».

يرفض المؤلف إذا الخرافات والبدع، وسمى إلى إقناع القارئ بالمنطق؛ وهذا الأمر يُعتبر مرحلة أساسية نحو فهم الدين: إنه يحاول أن يجعل الناس يفكِّرون في حقيقة دينهم.

وهكذا، يبدو لنا أحمد أمين من خلال مقالاته رجلاً نقياً وكذلك

(٣٣) قاموس: للخرافات والأوهام.

(٣٤) قاموس: تسخير للجان.

واضح الرؤية، غير مُنفلق في المفاهيم الشعبيّة للدين التي كانت سائدة في عصره. بل على العكس، إنّه يحاول في هذا الموضوع الدقيق أن يقوم بإصلاح أساسي لتطوّر الأمة: فالتكليف مع الحاضر وواقعه أمر طبيعيّ أكثر من العيش مع الأوهام المؤذبة، الموروثة عن الماضي.

ثانيًا: الحياة الاجتماعيّة

استطاع أحمد أمين، بفضل مركزه كقاضٍ^(٣٥)، أن يدرس حياة المصريين الاجتماعيّة دراسة دقيقة، وكذلك أن يُسهم في إيجاد حلّ لبعض من مشاكلها؛ ممّا سمح له بالتعاطي المباشر مع مشاكل المجتمع بعامة ودراستها على الأرض. كذلك كان، في حياته الشخصية، قريبًا من فقراء محيطه وأغنيائه، فاستطاع أن يكون فكرة واضحة عن نظام حياة الأفراد في المجتمع. لكنّ المؤلّف لا يدرس المجتمع من منطلق اجتماعيّ، بل أخلاقيّ، لذلك نقول إنّه يتناول في مؤلّفه «المجموعات» الاجتماعيّة لا «الطبقات» الاجتماعيّة.

أ - المجموعات الاجتماعيّة

يقوم المجتمع المصريّ على ثنائيّة تضع مجموعتين مقابل بعضهما البعض: الأغنياء والفقراء. إنهما مجموعتان غير متجانستين على الإطلاق، يقدّمهما لنا المؤلّف ثنائيّة ثابتة وفاعلة تضع مجموعةً مهيمنة، مستفلة هي مجموعة الأغنياء في مقابل مجموعة أخرى مستفلة هي مجموعة الفقراء.

❖ الأغنياء: وهم يجسّدون الانتهازيّة والكبرياء. يروّون، من مواقعهم في قمة الهرم الاجتماعيّ، في الفقراء خنًا بسطاء لهم. لكنّ أحمد أمين يتنصّرهم بشدّة: فحياتهم لا يشغلها سوى النساء والمُسكر. وهم يعيشون حياة بطالة ولا يهتمون بما حولهم من بؤس. حتّى إنّ الاسم الذي عُرفوا به

(٣٥) حياتي، ص ١٢٤.

«الذوات» أصبح يحمل في طياته تلك المعاني التي تدلّ على «استهتارهم» في الحياة.

يقول أحمد أمين: «وهي كلمة تدلّ على إباحية واستهتار، وإفراط في الخمر والنساء، وما إلى ذلك»^(٣٦).

كذلك شكّل الأغنياء تلك الأقلية التي تحكمت في أكثرية الأراضي الزراعية في مصر. فأصبحت قيمة الإنسان في نظرهم مرتبطة بمساحة الأرض التي يملك: تزيد قيمته بزيادة مساحتها وتنقص بنقصانها. وانحصر مهمهم في كيفية تأمين موارد غلاتهم على مدار السنة ليصرفوها على تسلييات لم يعرفها غيرهم، نظرًا لكلفتها. من هذه التسلييات «جنية الأزيكية» المشهورة حيث تكثر «نعوت الباكوتيات والباشوتيات وسعادتك...»^(٣٧).

في هذه «الجنية»، كان الأغنياء يصرفون بسخاء بدلّ على اللامسؤولية عندهم؛ ففي معظم الحالات، كانت أموال هؤلاء الأشخاص تصلهم من دون أدنى مجهود. هذا إن لم يكن هؤلاء من عائلات غنية وقد أمضوا صباهم في جؤ من الاستهتار، ممّا أدّى إلى نشوء فئة من الناس اعتادت الكسل والحياة السهلة، «الحرّة» و «العصرية».

يشرح لنا أحمد أمين «حرّيتهم» فيقول: «... فكانت جنية الأزيكية مظهرًا لتلك الحرّية التي فهم الناس منها الفجور والخمور والحشيش والقمار»^(٣٨).

إنّ أفضل ما يشرح تصرف هؤلاء الناس هو التحول تمنعجني الذي طرأ على المجتمع والذي تُرجم تحويرًا لا استيعابًا. هكذا. وفي مواجهة العصريّة، حوّر المجتمع مفهوم الحرّية إلى فسق وفجور. وهذه ردة فعل تظهر عند كلّ امرئ - تقريبًا - يتقل فجأة وبسرعة من مستوى إلى آخر أعلى

(٣٦) قاموس: الذوات.

(٣٧) قاموس: جنية الأزيكية.

(٣٨) قاموس: جنية الأزيكية. كما نجد فكرة «الحياة العصرية» و«الحرّية» عند نجيب محفوظ

في تضيحة في نقاهرة، ص ٢١.

منه. إنه كذلك نتيجة قلة النضج عند هؤلاء الأشخاص الذين يحكمون على الأمور من مظهرها الخارجي، فالمصرية عندهم أن يلبس العره الأزياء المصرية!

عندما يصف لنا أحمد أمين تصبير هؤلاء الأشخاص، نلاحظ تركيزه على المظاهر الخارجية والاجتماعية التي بها يظهرون. كما تلمس سخريته منهم لأنه يصفهم بغية إثارة سخرية القارئ من تصرفاتهم:

«وأما في سلوكه فهو خافض للصوت؛ وإذا تكلم ففي أناة ورقة وإذا ضحك فعلى قانون وإذا مشى ففي ثوبه تامة حتى لا تختل هندسة ملابسه، وإذا رأى أمامه أرضاً مرشوشة عمل لها ألف حساب كيف يتخطاها من غير أن ينال مركوبه أذى ومن غير أن ينال أقباله مكروه، وإذا أكل فالأناقة التامة من تصغير اللقمة والدقة في نظافة أصلعته والمراعاة الدقيقة حتى لا ينال ثوبه شيء مما يأكل ونحو ذلك» (٣٩).

كان الأغنياء يملكون معظم الأراضي الزراعية، لكنهم كانوا متشغلين عن إدارتها بإشباع رغباتهم في حياتهم السهلة، لذلك سلموها إلى وكلاء كانوا، في الغالب، شديدي القساوة ومستغلين إلى أبعد حدود. فتضاءلت زيارات المالكين لأراضيهم مما وسع الهوة بينهم وبين القرويين عمال الأرض. وهكذا، أسهمت الحياة للمصرية، إلى حد كبير، في تعميق الهوة بين هاتين المجموعتين الاجتماعيتين - الأغنياء والفقراء - بزيادة غنى الفئة الأولى وزيادة فقر الثانية.

على ضوء ما تقدم أصبحت كراهية الفقراء للأغنياء مزدوجة التبرير: لظلمهم إياهم أولاً واستغلالهم على يد الوكلاء، ولأنهم يجسّدون الاحتلال والاستغلال الأجنبيين. فمعظم الأغنياء يرسلون أولادهم إلى الخارج ليتعلموا؛ كما كانوا في غالبيةهم موظفين في الحكومة، أي في خدمة الأجنبي المحتل، بالإضافة إلى أن تصرفاتهم لم تكن إلا تقليداً لتصرفات الأجانب.

(٣٩) قاموس: بين البلد.

وعليه، يلاحظ أحمد أمين في هذا المجال، النظام الذي من خلاله تتحرك العادات في المجتمع: فالفة الرفيعة المستوى هي التي تفرض العادات على المجتمع. وذلك أمر طبيعي لأن كل الفئات في الهرم الاجتماعي تميل لا بل تطمح إلى تقليدها. ولذلك تنتقل العادات من «أعلى» إلى «أسفل».

- كما يلاحظ المؤلف أمرًا آخر يلفت الانتباه عند الأغنياء: التنازلات الكبير بين ممتلكاتهم وذريتهم، إذ غالبًا ما يكتفون بإنجاب ولد واحد، هذا إذا ما أنجبوا. ويقف المؤلف مندهشًا عند المقارنة مع العائلات القروية التي قد تضم إحداهما عشرة أولاد، على الرغم من فقرها، وانعدام مواردها الحيوية الأساسية.

أخيرًا يرى أحمد أمين أن الأغنياء، رغم رخائهم، قلما يُحسنون تربية أولادهم: «... وفي العادة لا يعرفون كيف يحسنون تربية أولادهم»^(٤٠). من ناحية أخرى، لم ينحصر استغلال الأغنياء بالفقراء، بل تعداهم إلى استغلال الخدمات العامة:

«ومصلحة التنظيم تُعاملهم أيضًا في الكسب والرش والتور معاملته ممتازة»^(٤١).

مما يدل على قوة نفوذهم الإداري. وهم، كذلك، يتحكمون بأسعار المُتجات الزراعية. فكانوا يشترون الفلّات بأسعار أدنى مما يدفعه القرويون لأنهم كانوا يشترون كل شيء في موسمهم. وبعد أن يحتكروها طوال فترة موسمها، يُترلوونها إلى الأسواق خارج مواسمها بالأسعار التي يرواونها.

كل ذلك أدى إلى تغلغل الاشتراكية في المجتمع المصري. فقد أدى التفاوت المادي بين الناس - إن في المداخيل أم في الثروات - إلى ظهور فئة غنية جدًا وأخرى في غاية الفقر. وهذا ما أيقظ الإحساس بالاستغلال لدى

(٤٠) فارس: للفوات.

(٤١) فارس: للفوات.

الفقراء: فهم الذين يقومون بالأعمال المضنية بينما لا يلبث أصحاب الأرض إلا إلى المتزوج من دون أي تقدير للمجهود الذي يقدّمونه. إذاً، أدى صراع المجموعات الإجتماعية وتفاوت الفروقات في المستوى الممبّي بينها إلى نشوء إيديولوجية سياسية وانتشارها في للمجتمع المصري.

وقد عاش أحمد أمين ليرى الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٢ يُحتفّ ملكية الأفراد للأراضي بمبّي فدان كجد أقصى. مما أدّى إلى إلقاء اللقود السياسي والاجتماعي الذي كان يتمتع بهما كبار المالكين. فنقرأ:

«... وقد زال كل ذلك في العهد الجديد»^(٤٢).

وكذلك:

«... ولذلك بدأت تخفّ القوارق شيئاً فشيئاً بين الأغنياء ولتتراء. والناس سائرون في كل العالم إلى ذلك»^(٤٣).

«الفلاحون»: «تعدّ مصر بحقّ هبة من هبات النيل...»^(٤٤) هكذا يبدأ أحمد أمين أحد أهمّ مقالاته «الفلاح» بإيراز هذه الفكرة التي عرّقت منذ أيام هيرودوت. ولا يزال الوضع الجغرافي لمصر، حتى اليوم، هو الذي يفرض على المصريين مهتهم الأساسية، الزراعة، التي تُشكّل عماد الحياة في مصر. والوضع الجغرافي هذا هو الذي يفرض كون غالبية المصريين مزارعين. صحيح أن ذلك جعلهم خيراً في مجال الزراعة، إلاّ أنّهم لم يتخلّوا عن الانفتاح الفكري؛ إذ إنّ انشغالهم بالأرض والماشية جعلهم صحتوي الفكر:

«إنّ أهل الريف طبّعيهم كثيف، وأخلاقيهم رذيلة، وذكولتهم هيلة، وضارّهم مزعجات. وذلك من كثرة معاشرتهم للبهائم، وملاصقتهم لثيل

(٤٢) قاموس: للنوات.

(٤٣) قاموس: للنوات.

(٤٤) قاموس: للفلاح.

الطين وعدم اختلاطهم بأهل اللطافة، وامتزاجهم بأهل الكثافة كأنهم حُلِقُوا
من طينة البيهائم^(٤٥) .

هذا القول، إن دنا على شيء، فعلى الرتبة التي كانت - ولا تزال -
تتحكم بحياة الفلاحين. ويذهب المؤلف إلى أبعد من ذلك، لِيُبين لنا كيف
أن أسماءهم تعكس بفرابتها، غرابة طباعهم:

«كرارة، أبو هبل، كشك، عفن، شرمص، شلتوت، جحش،
بعرور...»^(٤٦) .

كذلك، لا تخلو أسماء زوجاتهم من الغرابة:

«... بعرورة... زعبرطة، بطّة... سيبان... زحلفة،
طربوشة، شملاحة»^(٤٧) .

لم يستعمل الفلاحون الآلات الزراعية الحديثة، إلا أن ذلك لم يقلل
من مهارتهم في الزراعة. ويلاحظ أحمد أمين أن العلم الحديث والمكتنة لم
يُفريأهم. فهل كان ذلك دليلاً على رفضهم للأجنبيّ الغريب الذي يتسلل
إلى مجتمعهم بواسطة مدينته المُغرّبة؟ أم كان رقة فعل تجاه الأغنياء الذين
اعتمدوا الآلات الزراعية الحديثة؟ أم، بكلّ بساطة، هو الجهل والانغلاق
على الذات وعلى الماضي؟

«وقولهم: اللي يترك صنعة أبوه وجدّه يلتقى وعده؛ يريدون بذلك
الحضّ على احتراف حرفة الآباء والأجداد، فإنّ ذلك أجدى وأضمن
للنجاح»^(٤٨) .

وكما أنّ للفلاحين ظلّوا أوفياء لمهنة آباؤهم، كان طبيعياً أن يظلّوا
أوفياء كذلك للأحوات والأساليب الزراعية عيبتها التي استعملها آباؤهم؛

(٤٥) قاموس: لفتاح.

(٤٦) قاموس: الأسماء والألقاب.

(٤٧) قاموس: الأسماء والألقاب.

(٤٨) قاموس: أبو.

وهذا ما يفسر تعلُّقهم «بالأنماط» التقليديَّة، البدائيَّة في الزراعة:

«... ولكنهم مع الأسف يلتزمون الزراعة على الأنماط القديمة، فالآلات الزراعيَّة لا تزال هي السَّاقية والشادوف، ولا يزالون في رثيم وحرثهم ودرسهم وبذرهم يسرون على القديم»^(٤٩).

ويصل جهل الفلاحين حدًّا يقفون معه حُتَّيرين أمام مزروعاتهم إذا ما أصابها مرض ما، من دون أن يجدوا لذلك تفسيرًا.

هكذا، كان الفلاحون يعيشون حياة في غَايَةِ القساوة، يواجهون فيها، بصعوبة، المشاكل التي تعترضهم. بالإضافة إلى أنَّ استغلال الأغنياء لهم ولمجهودهم كان يجعل دخلهم هزيلًا بحيث لا يكفي أحيانًا لشراء لقمة العيش. فبرزت لذلك «عادة»^(٥٠) جديدة: الجوع!

وهذه «المادة» الجديدة ولدت طبقة واسعة هي طبقة الشحاذين، الذين اتخذوا الشحاذة مهنة لهم تُمكنهم من العيش. لكنَّها غالبًا ما كانت تصبح حالة مرضية عند مُتَهِينِها، وتشجِّعهم على الكسل. ويلاحظ أحمد أمين أنَّ هذه المهنة تطوّرت مع تطوُّر العصر بدلًا من أن تزول وتختفي. فالتصدُّن طاول الشحاذة كغيرها من مظاهر الحياة، فأصبح الشحاذون يمارسون مهنتهم بين السيارات وعلى أبواب الملاهي بعدما كانوا يستعطرون في الطرق وعلى أبواب المنازل: «ومنهم في العصر الحديث من يتخذ حِرْقًا شكليَّة لا قيمة لها كالوقوف أمام السيارات، وعند الخروج من الملاهي ونحو ذلك»^(٥١).

أما المدخول فقد كان مضمونًا، وذلك بحسب تقديرات الشحاذين أنفسهم:

«فهو يستطيع أن يسأل ألني شخص فَهَبَ أن ألقا وستائة مسول قال

(٤٩) قاموس: للزراعة.

(٥٠) قاموس: بئلية ونهاية.

(٥١) قاموس: للشحاذون.

على الله. فيقى أربعمائة يعطيه كل رجل قرشاً، فتصير مائتي قرش (٥٢).
كذلك، عندما ارتفعت الأسعار، «أصبح الشحاذ يأنف أن يأخذ مئمة أو
مئمة» (٥٣).

وعليه، كانت حياة الفلاحين قاسية وصقلية، يردون كل ما يحصل
لهم إلى «القدر» مما يفسر لنا حالة الانسراح للدائم لديهم وميلهم إلى
المزاح. كما أن القدر هو الذي يسير حياتهم، فلا داعي للاهتمام بالمشاكل
ولا حتى للتفكير فيها. وهذا ما كان يعرّز روح اللامسؤولية فيهم. فكان
مرحهم هو الدواء الذي زرعه الطبيعة في طباعهم لتساعدهم على نسيان
قساوة الحياة. فكان الناس يجتمعون ليحتيروا بعضهم النكات والأخبار
الطريفة.

كذلك، عرف الفلاحون تلبية أخرى هي الاجتماع في المقهى
للاستماع إلى «الشاعر» يروي لهم قصص التروية والشجاعة والبطولة
كقصة أبي زيد الهلالي وغيرها. وكان الحاضرون ينقسمون قسمين: منهم
من يؤيد الفارس البطل، ومنهم من لا يؤيده. وكانت هذه التلبية هي الأكثر
شعبية والأقل كلفة. كما كانت ثوابق ميل للفلاحين إلى أخبار البطولة
والحب الصادق.

إلا أن بعض الناس لم يكتفوا بهفه لتلبية البرية، بل فتشوا عن
ملذات أقوى؛ فقاموا في عالم الحشيش. وقد كانت هذه العادة شائعة كثيراً
في مصر، وبخاصة في البيئات الريفية. وهي، إن دلت على شيء، فعلى
هروب المصريين من عالمهم إلى عالم آخر حيث لا يعرفون إلا السعادة،
بعيداً عن همومهم، وحيث يتحرّرون من القيود والأعباء التي تكبلهم في
مجتمعهم. إنها هروب من الواقع بدلاً من للمواجهة؛ فالحشيش يهدئ
الأعصاب بدلاً من أن يثيرها. وتعاطيهم للحشيش، اختار المصريون
الهروب من وجه المصاعب في حياتهم، لا مواجهتها. وربما يكون

(٥٢) قاموس: الشحاذون.

(٥٣) قاموس: الشحاذون.

خضوعهم للأمر الواقع، للقَدَر، واعترافهم بمعجزهم تجاهه هما الميرر،
بنظرهم، لتعاطيهم الحشيش.

«وقال مجرب للحشيش: شعرتُ كأنَّ جدران الكون انبسطت حولي،
وصدرت منه أصوات مطرنة، أزال ما في نفسي من هم وخوف، وفتح
أمامي فردوس النسيم، وخضت في بحر من البهجة والسرور، وطفح الحب
على نفسي...»^(٥٤).

من الطبيعي أن يقوم أحمد أمين، بصفته مصلحًا همَّه الأول التصدي
للواقع المهترئ ومحارته بغية تفييره، بمهاجمة هذه العادة السيئة التي كانت
تُسبب هروب المصريين من الواقع. لم يكن ليرضى بالهروب، هو المناضل
في سبيل خير المجتمع، لأنه كان يعلم أنَّ التغيير لا يتم إلا عن طريق
النضال المستميت ضدَّ واسب الماضي المترسِّخة في عقليَّة المصريين.

إنَّ موقف أحمد أمين هو، في أحد جوانبه، ردة فعل دينية:
فالحشيش مقدَّمة للفجور والفسق، كما أنَّه يسهِّل انحراف الكثيرين. ويؤيد
الكتاب هذه الآراء بذكر أمثلة عن أشخاص كانوا يعيشون حياة كلِّها سعادة،
انقلبت جحيمًا منذ انحرافهم نحو تعاطي الحشيش^(٥٥).

وهكذا، يهاجم أحمد أمين هروب الناس نحو الوهم والخيال،
ويحاول حثهم على مواجهة حقيقة قدرهم: فالهروب هو تراجع، وهذا
يتعارض مع رغبته في تطوير المجتمع: وهذا التطوير يتطلب شجاعة في
المواجهة التي، وحدها، تؤدِّي إلى تطوُّر المستوى الفكري.

كنا قد رأينا سابقًا أنَّ الزراعة هي المهنة الأساسية التي عليها يعتمد
المصريون في حياتهم. فتراها تنعكس على تصرفاتهم، على حياتهم
الشخصية كما على تقاليدهم الاجتماعية. فبهدف العناية بالمزروعات، لم
يكن الفلاحون يوقرون أيَّ جهد. وهمم الأرحد كان العناية بالقطن

(٥٤) قاموس: للحشيش.

(٥٥) قاموس: للحشيش.

وبصحة نباته، وغالبًا ما أدى هذا الأمر إلى إقبال المدارس للاستعانة بالأولاد؛ مما يدلنا على الأهمية الكبيرة التي يعلقها المصريون، شعبًا وحكومة، على نجاح موسم القطن: فأية آفة تصيب النبتة تؤدي إلى كارثة اقتصادية ومعيشية.

من ناحية أخرى، اعتمد المصريون الشهور القبطية بدلًا من الشهور العربية، لأنها تتبع النظام الشمسي وبالتالي هي أكثر استقرارًا وثباتًا من النظام القمري، فتناسب بدئتها مواسم الزرع والحصاد. وهذا يشبه لنا - مرة جديدة - دور الزراعة الحيوي الأساسي في حياة المصريين: إنها تفرض عليهم عادات وظروفًا لا يمكنهم رفضها والّا كانوا كمن يرفض الحياة!

وهكذا نقرأ ما يلي: «وكثيرًا ما يستعمل الناس وخصوصًا الفلاحين الشهور القبطية بدل الشهور العربية... لأنها ثابتة تتبع الشمس. فيمكن أن يرتبوا عليها مزارعهم ومحاصيلهم وصيفهم وشتاءهم»^(٥٦).

وليس أدل على أهمية الزراعة في حياة المصريين من تعلقهم باللون الأخضر: فهو لونهم المفضل ومصدر تفاؤل بلديهم. أليس اخضرار أراضيهم هو سبب سعادتهم؟ فكُل أخضر إذا، بالنسبة إليهم، جيد وصالح. وهكذا نتوا بالأخضر كل ما أحبوا. أوليس العَلَم المصري، الأخضر اللون، أكبر برهان ساطع على أهمية الخضرة في البلاد وعلى تفاؤل المصريين بها؟

وهكذا، طبعت الزراعة بطابعها الخاص حياة المصريين الاجتماعية اليومية وفرضت عليهم نمطًا معينًا من الحياة. إنها علاقة حميمة نشأت بين المصري والأرض؛ فالفلاح يعطي الأرض عرقه وجهده ليحييها ويحيي منها. وبالمقابل، تعطيه الأرض خيراتها، وخضرتها، لكتيها تستعيد شعبًا بكامله: إذ إنها المنصر الأكثر ثباتًا وبالتالي الأكثر ديمومة في هذه العلاقة.

(٥٦) قاموس: للشهور القبطية.

في قاموس أحمد أمين دراسة وافية مفصلة للعائلة في مصر، بكل عاداتها وتقاليدها ومراحل التطور التي مرت بها في عصر المؤلف. والظاهر أنّ المركزين الأساسيين اللذين شغلتهما أحمد أمين في حياته هما اللذان سمحا بإعطائه هذا التفصيل الدقيق إلى أبعد حدود: فقد كان قاضيًا ومُدْرَس أخلاق؛ بالإضافة إلى الجور المائلي المصري البحت الذي ترعرع فيه. أما أسفاره، فقد أسهمت في توسيع آفاق نظريته إلى العالم وفتحت له مجالاً واسعاً للمقارنة بين مصر والبلاد الأوروبية.

«الملكة المصرية: إن أول ما يلفت في حياة العائلة المصرية هو سلطة الوالد المطلقة عليها: فالييت «مملكة» يحكمها الأب بتسلط، حتى إنه كان هو الذي يعين الأطباق التي ستأكلها العائلة كل يوم! ولم يكن يحق لأحد من أفراد العائلة الاعتراض أو المناقشة معه. أما قضية تزويج أبنائه، فهو المرجع الأول والأخير فيها، وله وحده الكلمة الفصل: «ويجب أن يجلس الولد أمامه في أدب واحترام وهو الذي يزوج إن شاء ويتركه إن لم يشأ»^(٥٧).

ومكثاه لم يكن أي جو من الفرح ليهدئ التشنج المسيطر على البيوت، فكان الأولاد يكبرون وهم يكتبون عقدة الخوف من قساوة والدهم وتسلطه عليهم.

كان المصري، منذ صغره، يفتح على خشونة الحياة والعلاقات الاجتماعية. وهذا ما يفسر - إلى حد ما - تقبله من دون اعتراض حياته انشائية كالمزاج.

كما آتتها للمعارض الأولى للخضوع أمام الحكام الأجانب المستبدين ونغياب الشجاعة والجرأة على الاعتراض. سلطة الوالد المطلقة في بيته كانت تحضّر لأبلى تبرر سيطرة واستبداد الأجانب، وذلك يقتلها بزور

المعارضة عند الأجيال الصاعدة: فمن خلال تعوُّدهم على حُكم آباؤهم المتسلط، سيرى المصريون تسلط الأجنبي عليهم أمرًا طبيعيًا.

كان الأب إذا يحكم عائلته التي غالبًا ما كانت تضم أولادًا عديدين. إلا أن النمو السكاني الذي شهده المجتمع الريفي والذي أوقع رب الأسرة في مشاكل «غذائية»، كان يبرزه الصراع مع الطبيعة: فزراعة القطن صعبة تتطلب جهدًا بشريًا بحيث لا يمكن الاستغناء عن مساعدة الأولاد. وهنا، نجد مرة جديدة الحياة الزراعية تفرض على المصري نمطًا من الحياة أساسيًا وحيويًا جدًا في صراعه للمعيش: ألا وهو كثرة التوالد. فنجده يدور في حلقة لا يستطيع الخروج منها: إذ لا بد له من أن يكون لديه أولاد كثيرون؛ إلا أن مدخوله لا يكفيهم نظرًا إلى استغلال الأغنياء لمجهوده.

لم تقتصر سلطة الأب في الأسرة المصرية على أولاده، بل طالت زوجته كذلك. فكانت لا تجرؤ على الأكل معه إذا لم يدعها، ولا على الخروج من المنزل من دون أن يأذن لها. وإذا كان الأولاد يسمحون لأنفسهم بالاعتراض على أمر أو بعدم الطاعة - وإن كان ذلك نادر الحدوث - فإن الزوجة لم تكن بأي شكل تستطيع ذلك، خشية الطلاق. لذلك كانت الزوجة مطيعة على الدوام ولا تخالف أمرًا من أوامر زوجها، مما عزز سيطرة هذا الأخير. وهذه الطاعة المطلقة تبرز فكرة «الزوجة - الخادمة» المترسخة في العقلية المصرية؛ إذ لم تكن المرأة سوى عنصر لذة، يتحكم فيها الرجل بحسب شهواته. فلم يكن يتظر منها أكثر من أن تكون خادمة نظيفة ومطيعة. وبما أنها لم يكن لديها أية ثقافة تملئها على زوجها، فقد كانت تشاركه جهله.

لكن يؤس الزوجة المصرية لم يتوقف عند استبعاد زوجها لها: فقد كانت تجد نفسها، في بيتها الزوجي نفسه، أمام ضرة لها أو أكثر، إذ إن الإسلام يبارك الزواج وتمتد الزوجات. وهذا ما جعل مشاكل دقيقة تبرز في الأسرة المصرية، وتؤدي - غالبًا - إلى قرار سهل، سهولة الزواج من زوجة ثانية أو ثالثة أو رابعة: الطلاق.

«وقد يضمّ البيت زوجتين «ضرتين» ومن أجل كبر الأسرة كانت تكثر فيها المشاحنات والخصومات. وقد ينقضي الليل في الحكم بين المتخاصمين والمتخاصمات، وقد ينتهي بالضرب أو الطلاق»^(٥٨).

كان تعدّد الزوجات شائعاً بين الفلاحين، وقليلاً بين أفراد الطبقات العليا. وبما أنّ الفلاحين كانوا يشكّلون الطبقة الأكثر عدداً، كان تعدّد الزوجات شبه عام وشكّل الكارثة الأكبر والجرح الأعمق في المجتمع المصري.

وهكذا، أصبح الطلاق هو الحلّ الأسهل لأيّة مشكلة تطرأ بين الرجل والمرأة داخل الأسرة المصرية: وغالباً ما كانت المرأة هي الخاسرة. من جهة أخرى، عزّزت سهولة الطلاق نظرة الرجل المتعالية تجاه المرأة؛ فكان يطلقها لأدنى سبب أو خلاف لأنّه كان يمكنه الحصول بسهولة على غيرها! «ومن الأسباب أيضاً أن تكون المرأة... تخلف بنات فقط، فيستحلّ الزوج لنفسه أن يتزوج غيرها»^(٥٩).

من هنا نشأت الأمثال الشعبية التي تدعو النساء إلى الحذر من عُذر الرجال مثل:

«يا مأمّة للرجال يا مأمّة للميّة في الغريبال»^(٦٠).

ولم يكن الرجل يكتفي بالسيطرة على زوجته بل كان يخبئها داخل بيته. وإذا حصل أن خرجت فإنّها - حُكماً - محجّبة.

لكن على الرغم من مظاهر الخشونة كان ربّ الأسرة حنوناً تجاه أولاده. فهو إن كان صارماً معهم فذلك لأنّه يحبّهم ويريد تربيتهم تربية حسنة. فالأسرة المصريّة متضامنة وأفرادها متعلّقون ببعضهم بشكل قويّ. تجاه هذا الواقع، تبدو لنا قسوة الوالد تعبيراً عن حبه لأولاده. فهو يريد لهم

(٥٨) قاموس: الأسرة.

(٥٩) قاموس: للزوج والطلاق.

(٦٠) قاموس: للزوج والطلاق.

دومًا إلى جانيه؛ إنهم ضمان شيخوخته. هل إنها خشونة البيئة التي انمكست على طياع المصري فجعلته يعبر عن عاطفته الأبوية بخشونة ونسطة مطلقة؟ فكثيرون من الأهالي لم يكونوا يرسلون أولادهم إلى المدرسة لئلا يتعدوا عنهم^(٦١)؛ كذلك فيما يتعلق بالسفر، مهما كان المكان المقصود قريبًا^(٦٢). ونحن نفهم تعلق الأهل القوي هذا بأولادهم، بالنظر إلى أهمية الأولاد في العائلة المزارعة بخاصة.

لم تقتصر العلاقات الحميمة على أفراد الأسرة الواحدة؛ بل كانت تتعداهم لتشمل كل العائلات الساكنة في جبي واحد^(٦٣). فكل الناس في الجبي يعرفون بعضهم بعضًا ويمدّون يد العون لأي فرد منهم. كذلك يزورون بعضهم في مناسبات الأفراح والمآتم والمناسبات الأخرى المختلفة. وإن مساواة البيئة الطبيعية هي التي تفسر لنا، مرة جديدة، هذه العلاقة الحميمة بين أفراد كل جبي القائمة على التعاون والتآزر. فالأسرة المتمزلة كانت - حُكمًا - غير قادرة على مواجهة متطلبات الحياة وحدها. ممّا فرض على العائلات التقارب لتبقى كتلة واحدة في مواجهة مشاكل الحياة: وهي مشاكل زراعية بشكل أساسي، ولكن سياسية أيضًا.

هكذا نرى في «قاموس» أحمد أمين المجتمع المصري يتطور طاوريًا عند عناصره انحرافات كثيرة أسهمت في تحويله مجتمعًا منفلقًا أكثر منه منفتحًا؛ ممّا جعل مهمة المصلحين أكثر صعوبة في مواجهة رواسب الماضي المترسّخة في عقول المصريين والتي تحدّ من إمكانيته هؤلاء المصلحين على التحرك والتحرّر.

«البيئة» والمنتجة الحديثة: عاش أحمد أمين في مرحلة انتقالية عرفها المجتمع المصري وتطغمت بكثير من آراء وعادات «الإفرنج» «الحديثة». وكما أوضحنا سابقًا، استطاع أحمد أمين، من خلال مركزه في

(٦١) قاموس: الأسرة.

(٦٢) قاموس: الأسرة.

(٦٣) قاموس: الأسرة.

القضاء، أن يدرس عن كُتب الأسرة ومشاكلها. ولذلك نراه يشدّد في المقالات التي تناول الأسرة على أنّ المصريين، بفعل اتّصالهم بالأجانب، راحوا يقلّدون الأوروبيين في نمط عيشهم. فتكرّر عنده إذا المصطلّحات التي تدلّ على تقليد المصريين الإفرنج، وعلى التناقض بين نمط الحياة ماضيًا (قبل عَصْره) وحاضرًا (خلال حياته). وتُمدّد هنا بعض الألفاظ التي وردت في «قاموس» أحمد أمين - أوروبًا، الفرنج، تَفْرَنْج، الإفرنجيات، تطوّر، تقليدًا للإفرنج، الأجانب، المرأة الأوروبية. كذلك نقرأ: العصر الحديث، نمط جديد، الأيام الأخيرة، في عصرنا، الأيام الحديثة، المدينة الحديثة، العلم الحديث، العصور الحديثة، قديمًا وحديثًا، في القديم، النمط القديم، الأنماط القديمة... إلخ.

كان الطلاق أوّل مشكلة خطيرة واجهها أحمد أمين. فتنبّه في المجتمع عالية. لذلك حاول المؤلّف دراسة أسبابه ليصل إلى العلاج المناسب. كذلك يتقدّ العادات التي توصل إلى مثل هذه الحالة المساوية في غالبية الأسر. ويأتي انتقاده متسجّمًا والخطّ الإصلاحيّ الذي عُرف في ذلك العصر، بهدف تحسين الوضع الاجتماعي في البلد كلّه ورفع مستوى المجتمع المصري. لذلك، رفض تعدّد الزوجات ورأى أنّ السبب الأهم في انحلال الأخلاق والزواج^(٦٤). فالأولاد في الأسرة الواحدة، المولودون من نساء مُختلّفات، يشبّون متحرّزين لإخوتهم من أمهم ضدّ إخوتهم المولودين من النساء الأخريات. وفي كلّ الحالات، هم يرثون تلك النظرة الفوقية المتعالية تجاه المرأة ممّا يروونه من معاملة والدعم لأهمهم.

ورأى أحمد أمين كذلك ميًا آخر لتفشي الطلاق في المجتمع المصري؛ ذلك أنّ الرجل لم يكن يلتقي زوجته إطلاقًا قبل الزواج. فكان نجاح الزواج رهناً بأمانة وصدق نوايا الأشخاص الذين كانوا يطلبون يد الفتاة من والدها.

(٦٤) قاموس: الزواج والطلاق.

إزاء كل هذه المشاكل، كان الحل عند أحمد أمين واحدًا: تحرير المرأة. وعلى الرغم من أنّ هذه الفكرة كانت تتعارض ونظرة الإيميلام الأخلاقية إلى هذا الموضوع، إلا أنّها كانت قد بدأت تغلغل بخطى بطيئة في المجتمع المصري رغم العقبات الكثيرة التي كانت تواجهها. والتقى أحمد أمين في فكرته هذه مع التيار الإصلاحى الذي كان يدافع عن حقوق المرأة - وأبرز دُعائه قاسم أمين. يرى أحمد أمين أنّ المنطق هو الحَكَم. ولذلك يؤيد تعليم المرأة الذي هو - بزأيه - الحلّ الأكد لكثير من المشاكل داخل الأسرة المصرية: فالمرأة المتعلّمة تسهم في تطوير المجتمع. فتكون قادرة على تربية أولادها بعيدًا عن تأثير الخرافات والأوهام، وبالتالي تخلق جيلًا متحررًا من أعباء الماضي ورواسبه التي تقف سدًا منيعًا في وجه تطوّر المجتمع المصري. كما أنّ إلغاء الحجاب يسهم - برأى أحمد أمين - في تفاهم الرجل والمرأة (قبل الزواج طبعا) ويخفّف من حدة شهواتهما.

إلا أنّ أحمد أمين يلاحظ بمرارة الانحراف الذي أصاب الأنماط الأوروبية المتسلّلة إلى المجتمع المصري، بسبب قلة نضج عقلية المصريين. فازداد نفُسخ المجتمع بدلاً من أن يلتجم ويتحد. والظاهر أنّ الناس تعلقوا بقشور «المدنية الحديثة» وأهمّوا الجوهر الذي أمل أحمد أمين في أن يراه في المجتمع المصري. وهكذا، أصبح التمدّن مرادفًا للباقة وحسن التصرف:

«... فلما انتشرت المدينة الحديثة أكلوا بالشوكة والملعقة والسكين» (٦٥).

أما في المدن، ويفعل التمدّن كذلك، فقد أصبحت المرأة تذهب إلى العمل (٦٦). ممّا يحرم الأولاد عاطفة وتربية والدتهم. وهنا يشدّد أحمد

(٦٥) قارموس: المقل.

(٦٦) لم يحند أحمد أمين الطبقة التي كانت المرأة فيها تذهب إلى العمل وتكفّر تربية أولادها إلى خادمة. إلا أنّنا نرى أنّ ذلك كان يتم على الأرجح في طبقة مبسرة. ممّا لا يسع بضميم هذا الوضع على المرأة المصرية عمومًا.

أمين على الدور الأساسي الذي يؤتيه الأهل في تربية أولادهم:

«ومع ذلك بقيت الأسرة قليماً وحديثاً خيراً مُرَبِّ للأطفال (٦٧)»

من جهة أخرى، يلاحظ أحمد أمين أنّ التفاهم بين الرجل والمرأة في الأسرة الريفية كان أكثر استقراراً منه عند الأسرة في المدينة (٦٨)

لم يتوقف تأثير المدينة الحليفة عند البشر بل طاول الحجر كذلك! يقول أحمد أمين:

«ولم تكن هناك ناطحات السحاب التي نشاهدنا الآن تقليداً لأمريكا... (٦٩)»

وقد أسهم هذا المظهر «الطلي» للمدينة الحديثة في تمزيق المجتمع المصري: فضعفت الروابط بين للعائلات، وانعزلت كل أسرة في شقتها «تقليداً لحياة الإفرنج» (٧٠). فانتحرت مظاهر الأفراح والمآتم الكبرى، وانحصرت ضمن الإطار العائلي الضيق. ولم يعد سكان حي ما، لا بل طابق ما في بناية يُعرفون بعضهم بعضاً ولا يزورون بعضهم بعضاً. فكان «اعتزال» الأسرة داخل نمط جديد: النمط الأوروبي. وانعكس هذا النمط كذلك على حياة الأسر الشابة فاختصرت علاقاتها مع الأقرباء حتى، وعاش الزوجان الشابان حياة مستقلة.

وراحت المرأة المتعلمة تتطلع إلى مناصب جديدة في المجتمع المصري وتحاول معادلة الرجل في تحمّل المسؤوليات الاجتماعية والفكرية، والسياسية كذلك. يقول أحمد أمين:

«... بدان في مزاحمة الرجال في العمل. فأصبح منهنّ المحاميات

(٦٧) قاموس: الأسرة.

(٦٨) قاموس: الأسرة.

(٦٩) قاموس: البيوت.

(٧٠) قاموس: الأسرة.

والطبييات، بل المهندسات والتاجرات والموظفات في الحكومة. وعلى الجملة فهنَّ يسرن إلى غابتهنَّ بخطوات واسعة^(٧١).

ولا يخلو أحمد أمين من الفكاهة لدى عرضه وضع المرأة المتعلمة، إذ يقول:

«وأخشى أن يرجع الأمر إلى ما قاله هيرودوت عن المصريين (أنَّ النساء يعملن في الأسواق والرجال يعملون في البيوت)^(٧٢)».

خلاصة القول، إن موقف أحمد أمين من المدينة المستوردة من عند الإفرنج إيجابيّ، لكن ضمن حدود المعقول؛ بحيث تسهم العادات الجديدة في تحرر المجتمع لا في تكيله بقيود جديدة. وقد هدف في محاولته الإصلاحية إلى جمع المجتمع وتوحيده، فإذا به يراه يتفكك أكثر فأكثر. فهل يكون هذا التفكك هدف المؤامرة السياسية التي تُسرب العادات الكفيلة بخلعة مصالحها، وتمنع تفشي العادات التي تؤدّي إلى وعي المجتمع المصريّ؟

خاتمة

في الختام يمكن القول إنَّ أحمد أمين بدأ، من خلال الكتاب الذي تعرّفنا إلى مضمونه، دقيقتي الملاحظة. وهو يركّز على ما يساعد مجتمعه في المضيّ نحو التقدم، مع حرصه على أن يُترك لهذا المجتمع طابعه المميّز. لقد حملت آراؤه عددًا من الكتاب على التمثّل به، كما جاء الكتاب بمشابه نافذة يطلّ منها القارئ العربيّ على خصائص المجتمع المصريّ أيام أحمد أمين.

إنَّ المنحى الذي يشهده العالمُ المصريّ لا يترك أيّ مجال للشك في صوابية نظرة الكاتب الذي يشدّد على ضرورة الأخذ بكلّ ما يسهم في إزالة

(٧١) قاموس: للمرأة.

(٧٢) قاموس: الأسرة.

الجهل والإفحاح في المجال أمام العلوم على أنواعها. وهو، بالمقابل، يدعو إلى الحفاظ على التراث، ولا سيما المهم منه، فيتعلق المصريون معه بجذورهم، بالأرض والوطن. أما الأخذ من الأجنبي فينبغي أن يساعد على تطوير المجتمع من دون القضاء على خصائصه.

المراجع

- BRAUDEL, FERNAND: *Ecrits sur l'Histoire*, Editions Flammarion, France, 1977.
- CNRS: *L'Egypte d'aujourd'hui, permanence et changements, 1805-1976*, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1977.
- FOUCAULT, Michel: *Les mots et les choses*, Editions Gallimard, France, 1966.
- LACOUTURE, Jean et Simone: *L'Egypte en mouvement*, Collection Esprit «Frontière Ouverte», Editions du Seuil, Paris, 1962.
- أمين، أحمد: حياتي، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩.
- محفوظ، نجيب: بداية ونهاية، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، لبنان، أيلول ١٩٧١.
- : السراب، لجنة النشر للجامعيين، مطابع دار الكتاب العربي، د. ت.
- : فضيحة في القاهرة، الكتاب الذهبي، نادي القصة، العدد الثامن عشر، نوفمبر سنة ١٩٥٣.